



بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكرى إرتقاء الشهداء

سيد قطب وإخوانه

29 أغسطس 1966

29 أغسطس 2019



الشهيد سيد قطب الثمرة الناضجة لفكر الدعوة

بقلم المرحوم اللواء صلاح شادي

خالص الاعتذار لطول الرسالة ولكن جلال المناسبة يقتضي إرسالها

قد يعجب القارئ عن الشهيد حسن البناء، الذي أسس جماعة الإخوان المسلمين، وعن الشهيد سيد قطب رائد الفكر الإسلامي في هذه الجماعة، الذي أغنى تراثها وتراث الأجيال من بعده بذخائر مؤلفاته، حين يعلم أن كليهما ولد في سنة 1906 م، ونهلا من معين واحد، حين تخرجا من دار العلوم، ثم افترقا.. كل إلى طريق!!.

أما الأول، فذهب يبني جماعة الإخوان المسلمين، وأما الثاني فذهب يضرب في دنيا الآداب، ويخلق في سماء الشعر، ويخوض في لجة الصحافة، ويبرز في ندوات الأدب والحب والجمال!!!.

ومن العجب ألا يجتمع أحدهما بصاحبه في دنيا الناس، ولكنهما التقيا في ركب الشهداء والصديقين، تحت راية واحدة هي راية جماعة الإخوان المسلمين، نحو هدف واحد هو إعلاء كلمة الله في الأرض.

وكان لابد للرجلين أن يلتقيا في عالم الشهادة، أو في عالم الغيب، مهما تباعدت بينهما دروب الحياة، فخصائص النفس واحدة في عزمها الجادة، البعيدة عن اللهو والعبث والجنون، وفطرة الله التي جبل لكليهما عليها كانت من الصلابة والرقّة والشفافية بحيث لم تدع لهما طريقا يسلكانه إلا طريق الحق الخالد الذي لا يسلكه إلا من كانت له مثل خصائص قلبيهما، صبة في الحق، ورقة في الشعور، وشفافية في الذوق والإدراك.

وتعجب أكثر أن الشهيد سيد قطب قد كتب مؤلفه في "العدالة الاجتماعية في الإسلام" سنة 1948، وسافر إلى أمريكا قبل أن يعرف شيئا عن جماعة الإخوان المسلمين! وإنما كان يراها من ضمير الغيب ويأمل أن يشهد رجالها في دنيا الواقع.

ولهذا صدر كتابه هذا بقوله: "إلى الفتية الين ألحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، مؤمنين في قرارة أنفسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين... إلى أولئك الفتية الذين لا أشك لحظة أن روح الإسلام القوية ستبعثهم من ماضى الأجيال إلى مستقبل الأجيال في يوم قريب... جد قريب"،

ولقد ظن الذين اطلعوا على هذا الكتاب أن المؤلف يقصد بهذه المقدمة شباب الإخوان المسلمين، في الوقت الذي لم يكن قد عرف شيئا عن هذه الجماعة وشبابها، فبادرت الحكومة المصرية يومئذ بمصادرة الكتاب وسحبه من السوق...!!

وكان الإخوان المسلمون وقتئذ في السجون والمعتقلات يصطلون بنيران النقراشى الذي قتل في 28 ديسمبر 1948، وامتد بعده حكم إبراهيم عبد الهادى حتى 25 يوليو 1949... وكان تعليق الشهيد حسن البنا على هذا الكتاب حين قرأه: "هذه أفكارنا وكان ينبغى أن يكون صاحبها واحدا منا"...

وتحقت آمال الشهيد حسن البنا بعد أن لقي ربه في 12 فبراير 1949 حين كان صاحب هذا الكتاب مريضا في إحدى المستشفيات الأمريكية، فلاحظ بهجة وسرورا يغمران من حوله الممرضات والمرضى فظن أن القوم في عيد، غير أنه ذهل حين سأله عن سبب بهجتهم تلك فكانت إجابتهم: "لقد تخلصنا من عدو الغرب الأول في ديار الشرق.. لقد قتل حسن البنا!!".

ولقد وجهت هذه الحادثة تفكيره ورسخت عنده أن يكون عضوا في جماعة الإخوان المسلمين!!، وألا يكتفى بأن يكون كاتباً إسلامياً فحسب بل جندياً في كتبية الإسلام.

وهكذا قدم الطبعة الثانية لكتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام" بقوله: "إلى الفتية الذين ألحهم بعين الخيال قادمين.. فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.. مؤمنين بقرارة نفوسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي أمنية وحلما، فإذا هم حقيقة أعظم من الخيال.. وواقع أكبر من الآمال.. إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات..

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله، في سبيل الله، على بركة الله، أهدى هذا الكتاب.."

وهكذا عرف الشهيد سيد قطب دعوة الإخوان المسلمين، وبدأ يعمل لا بقلمه فحسب ولكن بكيانه كله وطاقاته الخلاقة في التنظيم ووجدانه النابض بالحياة ليحكم شرع الله في الأرض.

حياته بين التخرج والاستشهاد

تخرج الشهيد سيد قطب من دار العلوم ويمارس كتابة الأدب والشعر، ويعمل في عدد من الصحف والمجلات كالأهرام والرسالة والأسبوع والشرق الجديد والعالم العربي..

وفكر في الزواج وتمت خطبته إلى إحدى الفتيات.. ولكن لم تدم طويلا!! ولكنها أثمرت فقط إحدى قصصه التي صورت شفافية روحه في علاقته القصيرة الطاهرة بهذه الفتاة.. وربما حمل اسم القصة "أشواك" ما تحمته مشاعره الرقيقة الدفاقة التي ساقها إلى الناس بعد ذلك أدبا رفيعا في عالم القصة..

وفي سنة 1948 حتى أواخر عام 1950 يمضى في بعثة حكومية من وزارة التربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة نظم التربية فيها.. وصبها صبا في عقول الشباب في مصر!!... ولكنه يعود ليصرح أنه لم يجد بدا من اتخاذ المنهج الإسلامي أساسا للتربية في مصر!!

وكان ذلك قبل أن يتعرف على جماعة الإخوان المسلمين... واتهمه المصريون المطبوعون بالطابع الأمريكي في وزارة التربية بالجمود والرجعية، وكتب عن أمريكا كتابا لم يشهد النور عنوانه "أمريكا التي رأيت" عرض فيه ما رآه هناك من زيف الديمقراطية المزعومة التي تفرق بين الأجناس والألوان وقارن بينها وبين نظام الإسلام..

ثم حرر مجلة "الفكر الجديد" بعد أن عرف جماعة الإخوان المسلمين وتحدى فيها الرأسمالية الجائرة واستغلال أصحاب الألقاب والنفوذ لأقوات الشعب وأرزاقه، وبدأت تلتقى عند الشهيد سيد الفكرة والحركة في تعانق منسق هدفه الوصول بالإسلام إلى الحكم الرشيد في الوطن الإسلامي كله.

وفي عام 1952 انتخب الأستاذ سيد قطب عضوا في مكتب الإرشاد للجماعة وعين رئيسا لقسم نشر الدعوة في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين.

وفي شهر يوليو سنة 1954 عين رئيسا لتحرير جريدة "الإخوان المسلمين" ولكن الجريدة عطلها عبد الناصر بعد شهر واحد وخمسة أيام حين بدأت تعارض المعاهدة الإنجليزية المصرية التي عقدها عبد الناصر وضباط الحركة مع الإنجليز..!

وساقه عبد الناصر مع الإخوان المسلمين في يناير 1954 إلى حجرات التعذيب في سجن القلعة والسجن الحربي وأبي زعبل وليمان طره، ثم أحلى سبيله في مارس سنة 1954 حيث مرض مرضا صدريا وأصابته أزمة قلبية كادت تطيح به في يوليو سنة 1955 بعد دخوله السجن مرة ثانية.

وفي 13 يوليو سنة 1955 حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة 15 عاما مع الأشغال الشاقة، وكانت فترة سجنه نحو من عشر سنوات دامت حتى 1964.

وفي عام 1965 أعيد إلى السجن من جديد متهما برئاسة مؤامرة دبرها الإخوان المسلمون لقلب نظام الحكم سنة 1965.. وقدم أمام محكمة صورية هزلية أمام أحد الضباط "محمد فؤاد الدجوى" الذي أسرته إسرائيل قبل ذلك سنة 1956

وقدمته أمام شاشة التلفزيون ذليلاً مهيناً لم يجرؤ أن يقول كلمة طيبة عن وطنه أو عن سادته الطغاة.. وكان هذا الصنف المتملق الجبان هو أصلح من يتولى محاكمة الشرفاء.. لأن عبد الناصر كان يملك منه ما عجز عن أن يملكه من الشرفاء.. وفي صبيحة يوم 29 أغسطس نفذ فيه حكم الإعدام فلقى ربه بصفحة مشرقة من الرجولة والبطولة والوفاء.. ولا يسعنا أن نختتم هذه الصفحة الساطعة البياض إلا أن نشير إلى اقتباس من نور حياته في محنته وراء الأسوار. قلنا إنه ظهر لنا من خصائص شخصية طفل القرية إباءه للظلم وكرهه للطغاة، وحين عنَّ لعبد الناصر أن يقهر كبار الإخوان في عزتهم وإبائهم عرض عليهم أن يكتبوا تأييداً له إذا أرادوا الخروج من محنتهم!..

وضل في هذا التيه كثير، وصمد له كثير ومن بينهم شهيدنا الغالي الذي رد على الضابط السجناء بمقولته المشهورة: "إن السبابة التي أشهد بها في كل صلاة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لا يمكن أن تكتب سطراً فيه ذل أو عبارة فيها استجداء، فإن كنت مسجوناً بحق فأنا أرضى بالحق، وإن كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل!..". وربما يعزينا في هذا المقام أن نسمع بعضاً من أحاديث الشهيد لأسرته وذويه في أثناء سجنه، حين يقول في إحدى رسائله:

"عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي. وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود!! أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض. إننا نريح أضعاف عمرنا الفردى في هذه الحالة نرجحاً حقيقة لا وهماً، فتصور الحياة على هذا النحو يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا وليست الحياة بعدّ السنين ولكن بعداد المشاعر، وما يسميه (الواقعيون) في هذه الحالة (وهما) ! هو في (الواقع) (حقيقة) أصح من كل حقائقهم.. لأن الحياة ليست شيئاً آخر غير الشعور الإنساني للحياة، جرد أي إنسان من الشعور بحياته، تجرده من الحياة ذاتها في معناها الحقيقي! ومتى أحس الإنسان شعوراً مضاعفاً بحياته فقد عاش حياة مضاعفة فعلاً..".

وتقرأ له سلوكه كداعية مع الناس في شهرهم وخيرهم فترى من دقة فهمه ورقة حسه ما جعله أهلاً لإيصال الحق للنفوس الحيرى:

"عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لا تراه العين من أول وهلة... لقد جرت ذلك مع الكثير، حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور... شيء من العطف على أخطائهم وحمقاتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية - غير المتصنعة - باهتماماتهم وهمومهم ثم ينكشف لك النبع الخير في نفوسهم، حين يمنحوك حبههم ومودتهم وثقتهم في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص..،

إن الشر ليس عميقاً في النفس الإنسانية إلى الحد الذي تتصوره أحياناً أنه في تلك القشرة الصلبة من الثمرة الحلوة للحياة التي تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن في جانبه، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم، وعلى

أخطائهم وعلى حماقتهم كذلك.. وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله، أقرب مما يتوقع المثيرون، لقد جربت ذلك، تجربته بنفسى فلست أطلقها مجرد كلمات مجنحة وليدة أحلام وأوهام..!".
ويؤكد لك روح الداعية فيه، وسمت تواضع المؤمن الذليل لأخيه العزيز على الطاغية والطاغوت ما تسمعه منه حين يقول:-

"حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أظهر منهم روحا، أو أطيب منهم قلبا، أو أرحب منهم نفسا، أو أذكى منهم عقلا لا نكون قد صنعنا شيئا كبيرا... لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة!!
إن العظمة الحقيقية: أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم و تثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع.
إنه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية أو أن نتملق هؤلاء الناس ونثنى على رذائلهم، أو نشعرهم أننا أعلى منهم أفقا، إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد هو العظمة الحقيقية".
و حين تشهد نور كلماته في مؤلفاته المشرقة بالحق والجمال تعرف من خلالها كيف يسكب فيها مهجته ودمه ونبض قلبه وروحه، ومن أقواله:-

"إنه ليس كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها وتجمعها وتدفعها... إنها الكلمات التي تقطر دما، لأنها تقتات قلب إنسان حي..

كل كلمة عاشت قد اقتات قلب إنسان، وإن الكلمات التي ولدت في الأفواه وقذفت بها الألسن، ولم تصل إلى ذلك النبع الإلهي الحى فلقد ولدت ميتة ولم تدفع بالبشرية شبرا واحدا إلى الأمام.. إن أحدا لن يتبناها لأنها ولدت ميتة، والناس لا يتبنون الأموات!..

إن أصحاب الكلمات والأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئا كثيرا.. ولكن بشرط واحد أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق.
إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثة هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها أو فديناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء..
محاكمة الشهيد

وربما أضفت جديدا إلى القارئ عن ظروف محاكمة الشهيد سيد قطب بما كتبه عنه الأستاذ يوسف العظم في كتابه الذي دونه عنه:-

أما المحكمة التي قدم إليها الشهيد سيد قطب وإخوانه فليست جديدة على كل حال.. لقد عرفتها مصر الثورة من قبل.
كان ذلك في عام 1954 حين قدمت العالم الشهيد عبد القادر عودة، والمجاهد محمد فرغلى، وفريقا من طلائع الفداء جزءا من مسرحية ساخرة وتمثيلية دامية.. انتهت بهم إلى حبال المشانق، في الوقت الذي أعيد فيه ثلاثة عشر بحارا يهوديا من

بحارة السفينة اليهودية (بات جاليم) إلى إسرائيل وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء والدعوة للثورة التي أحسنت معاملتهم وأكرمت
مثوهم في جناح مفروش مؤثث بكل وسائل الراحة في السجن الحربى العتيد...!
قد يبدو هذا خيالاً ولكنها الحقيقة التي هي أغرب من الخيال، وقد يبدو هذا مبالغة ولكنه الواقع الذي يفوق المبالغة،
نشرت معظمه صحف الثورة يومذاك في معرض الحديث عما سمته جرائم الإخوان المسلمين.. وحسن معاملة الثورة لأسرى
الدولة اليهودية!!

ونعود إلى قاعة المحكمة؛ لنتلقى بأعجب حلف يجمع بين القاضى والدفاع والنيابة العامة والجمهور حيث يتمارى الجميع
في إصاق ما يرون للسلطان من تم وهم يسخرون من إنسان سلبوه كل مقومات الدفاع عن النفس وحرموه من أبسط
مقومات الحرية!!

إن القاضى في كل الشرائع والقوانين الكونية يسمع رأى النائب العام الذي يحاول إدانة المتهم، ثم رأى الدفاع الذي يبذل
جهده لتبرئة موكله، ثم رأى المتهم إن رغب في ذلك وكان لديه ما يقوله.

أما القاضى في محاكم الثورة العتيدة المتعافية فمهامه كثيرة، ليس بينها الإصغاء بتعقل، والاستيعاب بإنصاف وتقصى
الحقيقة بتجرد -ليصدر الحكم بعد ذلك بنزاهة لا يشوبها شائبة سوى عجز الإنسان عن إدراك الحقيقة وبلوغ الحق المطلق.
إن القاضى في محاكم الثورة التي ألقت قصتها ووضع حوارها وتم إخراجها على يد رجال المخابرات هم تنفيذ المؤامرة
وسوق الأبرياء إلى حبال المشانق وزنازين الطغاة.. وإذا كان القاضى يقوم بدور الممثل الأول.. فالجمهور يقوم بدور
"الكمارس" ذلك أن كل خفقة في صدره ونبضة من دمه وخلجة في وجهه وكلمة ينطق بها.. كلها تعلن تحيره وتؤكد أن الحكم
صادر في مخيلته واضح في تصوره قبل بدء المحاكمة، وكل ما يجرى على ملاء من الجمهور تمثيل في استوديوهات دوائر المخابرات
التي يسمونها محكمة الثورة!!

والنائب العام.. أو المدعى العام.. إنه لا يسوق الأدلة على الإدانة ولكنه يسوق عبارات السخرية والألقاب التي تبدأ
(بالقطب الأغر) و (القطب اللامع) وتنتهى (بزعيم الإجرام وعصابة الإرهاب الآثمة).
أما الأدلة والحجج فلا داعى لها، ألا يكفى أن أبواق الإعلام المسعورة خارج القاعة وقبل يوم المحاكمة قد مهدت الأجواء
والأصدقاء وأصدرت حكمها مسبقاً على المتهمين وأعلنت خيانتهم وطالبت أن يحكم على البعض بالموت والبعض بالسجن
المؤبد..

ومن الغريب العجيب أن تأتى مطالبة النائب العام بنسخة مما تطالب به الصحف وما ترجموه الإذاعة وما يرغب فيه
التليفزيون، وأن تجئ أحكام القاضى النزيه محمد فؤاد الدجوى مطابقة منسجمة مع تلك المطالب وتلك الرغبات!!

ومحامو الدفاع في قضية الأبرياء.. أمرهم لا يقل عجباً، موقفهم لا يقل غرابة، إن مهمتهم في المحكمة تنحصر في كيل المديح لعدالة القاضى بعد دعاء خاشع أن يحفظ الله الرئيس المفدى من كل سوء.. ثم لمحة عن تاريخ الرئيس التى سخرته العناية الإلهية لرفع مستوى الشعب المصرى وإنقاذه من الذل والمهانة ويختتم الدفاع خطبته بفقرتين هامتين..

الأولى اتهام السجين الذي يدافع عنه المحامى الأمين بالجنون أو المرض النفسى أو الكذب والحقد والغرور، والثانية يطلب بها رحمة المحكمة..

لقد منعت السلطات الظالمة يومذاك عددا من المحامين العرب الذين تطوعوا من السودان والمغرب والأردن وغيرها للدفاع عن المتهمين.. منعتهم من دخول مصر والمرافعة أما محكمة الثورة.. في الوقت الذي تعلن فيه قرارات مؤتمر المحامين العرب أنه يحق لأى محام عربى أن يتراجع أمام محكمة عربية - ولم يجد مثل هذا القرار الجائر موقفاً منصفاً أو اعتراضاً كريماً من محامى التقدمية والثورية في كل أجزاء الوطن العربى المنكوب!!.

ولما لاحظ القائمون على أمر المحاكمة خارج المحكمة أن نشر وقائع الجلسة ولو مزورة مشوهة يطلع الناس على جانب من الحقيقة ويبين لهم بعض الحق.. أمروا بمنع نشر وقائع الجلسات على الصحف.. وقد نسوا أنها جلسات علنية كما أعلنوا.. واكتفوا بنشر خبر لا يتعدى أربعة أسطر يشير إلى أن محاكمة المتهمين ما زالت جارية.. وأن الأحكام ستصدر قريباً.

ولو قدر للجمهور المبعد عن قاعة المحكمة أن ينفذ إليها وأن يحتل مقاعدها لوجد كثيراً من مواقف الجرأة التى يعلنها الشباب المؤمنون والسجناء الأبرياء بأنهم أصحاب عقيدة.. وأنهم يعملون لخلاص ديارهم من كل طاغوت. وإنقاذاً من كل تبعية!!..

ولقد وقف الداعية الشهيد سيد قطب يسخر من المحكمة التى أمر قاضيتها وطلب إليه أن يذكر الحقيقة كما يريد لها كما وقعت. فقال.. وقد كشف عن صدره وظهره الممزق بالسياط وأنياب الكلاب البوليسية الثورية: أتريدون الحقيقة.. هذه هى الحقيقة!!

فضجت القاعة بالاشتمزاز وأشاح الجمهور بوجهه ألماً وازدراء لما يقع في سجون مصر الثورة!! رغم أن معظم جمهور القاعة من زبانية الثورة وزبائن المخابرات، كان الناس يتتبعون بلهفة ما يجرى في محكمة الثورة.. وكانوا على علم من مجريات الحوادث وسرد الوقائع ولهجة القاضى والنيابة والدفاع.. بأن الموت ينتظر فريقاً من الأبرياء الذين نذروا أنفسهم في سبيل الله وإنقاذ مصر من هلاك محقق.

مؤلفات الشهيد

وربما استوقفنا غزارة إنتاج الشهيد سيد قطب في جوانب ملكاته المختلفة كأديب وقصصى وشاعر ومؤلف إسلامى وداعية.. ونذكر من مؤلفاته القصصية:-

(1) طفل من القرية. (2) أشواك. (3) المدينة المسحورة. (4) قصص الأنبياء. (5) الأطياف الأربعة.

ونذكر من دواوين شعره:-

(1) الشاطئ المجهول. (2) حلم الفجر. (3) قافلة الرقيق.

ونراه ناقدا منصفاً كذلك في كتابه "نقد مستقبل الثقافة في مصر" الذي صدر في ثمانين صفحة، عرض فيه برأيه في كتاب طه حسين الذي أثار ضجة حينذاك بدعوته إلى الأخذ من حضارة الغرب "حلوها ومرها خيرها وشرها" وأبرز الشهيد سيد قطب في نقده لهذا الكتاب المغالطات التي أوردها طه حسين في هذا الشأن بصورة واضحة لا لبس فيها...

كما قدم في مجال النقد أيضاً كتابه "النقد الأدبي أصوله ومناهجه".

أما سيد قطب صاحب الفكر الإسلامي الرشيد فأول ما قدم في هذا الصدد "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ثم أردف كتابه هذا بمؤلفاته الآتية:-

(1) معركة الإسلام والرأسمالية. (2) السلام العالمي والإسلام. (3) دراسات إسلامية. (4) نحو مجتمع إسلامي. وعندما تحركت أشواق الشهيد سيد قطب ليخدم الحركة الإسلامية في إطار جماعة -هي جماعة الإخوان المسلمين- قدم للإسلام هذا التراث الخالد:-

(1) هذا الدين. (2) المستقبل لهذا الدين. (3) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. (4) الإسلام ومشكلات الحضارة.

(5) في ظلال القرآن. (6) معالم في الطريق.

إن كتب الشهيد سيد قطب لا غنى بعضها عن الآخر، ولكن إذا أردنا تلخيص معطياته للأمة الإسلامية في مجال الحركة. استطعنا أن نجدها في كتابيه "في ظلال القرآن" و "معالم في الطريق"، فما عجز عن نشره في مضمون التحرك الإسلامي في الكتاب الأول استطاع بعد ذلك أن يقدمه في كتابه "المعالم..".

ولعل الشهيد سيد قطب يعرض لنا طرفاً مما أراد أن يقدمه للناس في كتابه الظلال، وأنت تقرأ له في مقدمة الطبعة الثالثة قوله:-

"لقد عشت أسمع الله - سبحانه وتعالى - يتحدث إلى بهذا القرآن أنا العبد القليل الصغير... أى تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل، أى رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أى مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟.."

وعشت في ظلال القرآن أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعجب أهل الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال وتصورات الأطفال واهتمامات الأطفال، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ومحاولات الأطفال ولثغة الأطفال. وأعجب ما بال هؤلاء الناس؟ ما بالهم يركزون في الحمأة الوبيئة، لا يسمعون النداء

العوى الجميل، النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويذكره..؟ عشت أتملى في ظلال القرآن.. ذلك التصور الشامل الكامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني وأقيس إليه التصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب وشمال وجنوب، وأسأل.. كيف تعيش البشرية في المستقبل الآسن في الدرك الهابط، في الظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الذكى، وذلك المرتقى العالى، وذلك النور الوضى.. وعشت في ظلال القرآن أحس التناسق بين حركة الإنسان كما يريد الله، وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله.. ثم أنظر.. فأرى التخبط الذى تعانیه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريفة التي تملئ عليها، وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسى، أى شيطان لعيم هذا الذى يقود خطاها إلى الجحيم؟ يا حسرة على العباد.. وعست في ظلال القرآن الكريم.. أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود، أكبر من حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه، إنه عالم الغيب والشهادة، لا عالم الشهادة وحده...

وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها، والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاوّل.. والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو رحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله، وإنما هو قسط من هذا النصيب، وما يفوته هنا من هذا الجزء يفوته هناك، فلا ظلم ولا بخر ولا ضياع، على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون مأنوس وعالم صديق ودود" ..

وبعد...

فلا نستطيع أن نترك مجال الحديث عن كتاب "الظلال" وكاتب "المعالم" بدون أن نعرض لما توهمه البعض فيما أورده الكاتب الشهيد.. في هذين الكتابين من أنه كفر المسلمين بمعاصيهم إذا لم يعملوا في صف الجماعة التي ينتمى إليها، والحركة التي يعمل للإسلام من خلالها، وأنه عد المجتمعات المعاصرة في ديار الإسلام مجتمعات جاهلية أفرادا وحكاما وأنظمة... ويرد الأستاذ يوسف العظم في كتابه عن الشهيد سيد قطب على هذا الوهم في فهم الجاهلية التي ورد ذكرها في هذين الكتابين فيقول:-

لقد وردت كلمة الجاهلية في عطاء سيد قطب عند الحديث عن الفهم والأنظمة والأخلاق التي تهيمن على "المجتمع الجاهلي اليوم" كما سيطرت على المجتمع الجاهلي الأول، ولم يورد الشهيد كلمة الجاهلية في حق الأفراد ما يفهم منه تكفير الناس أو إخراجهم من ربة الإيمان...

كما وردت كلمة الجاهلية في بعض المواضع لدى الشهيد بمفهوم التخلف في الفكر والخلق والقيم وأساليب الحياة يقول:-

"ولابد أن نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة التشريع - فالتصورات والمناهج والقيم والموازين والعادات والتقاليد... كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه، وحين يصنع الناس -

بعضهم لبعض - هذه الضغوط - ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع لا يكون هذا المجتمع متحررا، إنما مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد - كما أسلفنا - وهو - من ثم مجتمع متخلف - أو بالمصطلح الإسلامي .. جاهلي".

وإن للجاهلية مفاهيم متعددة ومعاني كثيرة، فما بال قوم يحملونها على معنى الكفر البواح دون سواه، إذ أن للكفر نفسه مفاهيم متعددة ومعاني كثيرة، فما بال قوم يصرون على أن تحمل على معنى الشرك وعبادة غير الله؟! ثم يستطرد المؤلف يوسف العظم فيقول:- "هذا هو الفهم السليم لفكر الشهيد، وهذه هي دعوة الإسلام التي دعاها - يرحمه الله - وما سوى ذلك فلغو وضيق أفق ومرض ولا يستقيم مع مفهوم الإسلام في الإصلاح ودعوته في بناء الأنفس والمجتمعات".

ويختتم عرضه لآراء سيد قطب عن مفهوم الجاهلية:-

ومن هنا يتضح لنا أن تسمية المجتمع اليوم مجتمعا جاهليا لا تعني اعتباره مجتمعا كافرا بأفراده أو حكامه، غير أن هذا لا يعني اعتبار أنظمتها المارقة المستوردة الدخيلة أنظمة إسلامية وقوانين إيمانية. ولكنها قوانين جاهلية وأنظمة صبغها الكفر واستوردها الخانعون ليطبّقوها في ديار الإسلام، يرضون بما المستعمر المتسلط والعدو الغاصب، ويدلون بما عباد الله من أبناء أمتهم المبتلاة باستعلائهم، المنكوبة بطغيانهم، وهم يجرمونها من إقامة العدل وتطبيق شرع الله في الأرض.

وفهم آخر يلزم التنويه عنه حيث حاض فيه المحبون والشائقون لشهيد الإسلام هو معنى "لا إله إلا الله" ..

فيقول الشهيد - عليه الرحمة - "لا إله إلا الله منهج حياة" فالعبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة "أن لا إله إلا الله" والتلقى عن رسول الله (ص) في كيفية هذه العبودية هو شطرها الثاني، المتمثل في شهادة "أن محمدا رسول الله".

ثم يستطرد فيقول: والمجتمع المسلم هو الذي تتكثف فيه تلك القاعدة ومقتضياتها، لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلما... الخ.

وأراد البعض أن يحملوا هذا القول أكثر مما يحمل واقعه فقالوا (إن الكاتب يصدر أحكاما على الناس بالجملة بالكفر)!! وحول هذا الفهم يرد الأستاذ محمد قطب شقيق الشهيد سيد فيقول:- "لقد سمعت الشهيد يردد أكثر من مرة قوله: نحن دعاة ولسنا قضاة إن مهمتنا ليست إصدار أحكام على الناس ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله، لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي وهو التحاكم إلى شريعة الله.

فضلا عن أن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لا تقبل الشك، وهذا أمر ليس في أيدينا، ولذلك فنحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس، فلسنا دولة وإنما نحن جماعة مهمتها الدعوة لتبيان الحقائق للناس لا إصدار الأحكام عليهم".

ونحن في هذه النبذة عن الشهيد سيد قطب (أفكاره) لا نستطيع الإفاضة في الرد على ما قيل عن خروج أفكاره عن مشكاة الشرع، فإن ما دعا الشائنون إلى هذا الخطأ هو تعريفه لمعنى التوحيد بأنه تصديق سلوكى وشعورى عما نطقه اللسان، فاستنتجوا أنه يعنى الحكم بالكفر على من كذب سلوكه قوله.. وهو أمر لم يرد في حسابانه بإطلاقه هكذا بهذه الصورة: ولكن قد نجد أنفسنا في حاجة إلى الرد على مقولة الشهيد في دار الحرب ودار الإسلام، فيما أورده في كتاب المعالم حيث قال:-

"إن هناك دار واحدة هي دار الإسلام، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضا، وما عداها فهو دار حرب علاقة المسلم بها إما القتال وإما المهادنة على عهد وأمان ولكنها ليست دار إسلام. ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين"..

فقد لا يتسق هذا القول مع سابق ما قدمناه من شروح لأفكار الشهيد إلا إذا حملنا عبارته على أن الديار التي يعيش فيها المسلمون تبقى ديار مسلمين، وإن تكن ديار إسلام بالمصطلح الفقهي المعروف..

وأخيرا.. بقى أن نقدم مقارنة بين عطاء الشهيدين حسن البنا وسيد قطب للإسلام وللحركة الإسلامية، فلا مجال للمفاضلة بين الرجلين، إذ أن الشهيد سيد قطب يقول ويشهد للإمام حسن البنا بالأستاذية، ويعترف له بفضل السبق إلى ميدان العمل والبناء. وما خطر بباله أن يأتي اليوم الذي يرضى فيه الرجل لنفسه أن يقدم على الإمام الشهيد، البناء، العبقري في أى مجال. مجالات البناء والعطاء،

وهذا ما أورده الشهيد سيد قطب في كتابه "دراسات إسلامية" حيث تحدث عن البنا وعبقرية البناء، ويحسن أن نورد هان ما سجله الأستاذ يوسف العظم حول هذه المقارنة في كتابه عن الشهيد سيد قطب فيقول:-

■ يمضى الشهيد على طريق الأدب أولا والفكر ثانيا والالتزام بأمور الدين والفرائض ثالثا، بينما بدأ حسن البنا حياته ملتزما بروح الدين وتكاليف الشرع، حتى إنه أنشأ وهو مازال على مقاعد الدراسة جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

■ وإذا كان حسن البنا قد انصرف إلى الأنفس يدعوها إلى التطهر، والقلوب يدعوها إلى التآلف، فقد انصرف سيد قطب ابتداء إلى العقول يدعوها إلى الاستنارة والتبصر والتدبر والنظر فيما حولها وما يراد بها من مكر الأعداء وتآمر الدخلاء الذين يحملون أسماءنا وينطقون الحروف العربية كما نطقها في حياتنا اليومية مساء وصباحاً.

■ لقد انصرف حسن البنا لجمع الشباب وتوعيتهم وتنظيمهم حول صفاء العقيدة وشمول الإسلام وصلاحيته للحكم ومعالجة شئون الحياة مستمدا من الكتاب والسنة قواعد أساسية عامة أقيم عليها تنظيم الجماعة.

▪ أما سيد قطب فقد لقي جيلا منظما، وشبابا متوثبا، وجماعة واعية فراح يعمق مناهجها ويبلور أهدافها وغاياتها وفق أحكام الإسلام متخذاً من القرآن الكريم منطلقاً منها حتى صار رجل الفكر الأول ليس في الجماعة وحدها بل في العالم الإسلامي كله.

▪ كان البنا مهندس الجماعة وبانيها، وكان سيد قطب نبعها الثرى بزخم فكري نير، وعطاء من نور الإيمان، يقدمه منهاج حركة ومنهاج حياة، لجماعة عملت منذ وجدت بتطبيق شرع الله في الأرض، واستئناف الحياة الإسلامية رغم كل الظروف القاسية والمؤامرات المريبة التي لا ترحم.

▪ لقد كان حسن البنا البذرة الصالحة للفكر الإسلامي، وكان سيد قطب الثمرة الناضجة لهذا الفكر المستنير.

▪ ولئن كان الشهيد سيد قطب قد زرع في كل بيت كتاباً ينير العقل وفكر تهتدى به الأجيال فقد زرع الشهيد حسن البنا في كل ميدان رجلاً وفي كل حقل داعية يعطى المثل الحى على أن الإسلام حسن تحمله القلوب الصادقة في الصدور العامرة يحيلها أقباساً وضيئة، ومشاعل على الدرب، وعناوين على البذل والعطاء.. لتكون كلمة الله هي العليا أبداً، وجند الشيطان الخاسرون إلى بوار..

▪ لقد قدر للرجلين أن لتقيا في عام الولادة.. وأن لتقيا في ساح الشهادة، بأن يسقط كل منهما على يد طاغية أرعن وجندى من جند الشيطان.. والرجاء في رحمة الله كبير بأن يغمرهما بفضله منه وأن يجمعهما في مستقر رحمته في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

اللهم ارزقنا الصبر والثبات على الطريق.